د. أودي أديب*

الصهيونية كخرافة قومية يهودية

جون روز، ٢٠٠٤، خرافات الصهيونية، لندن، منشورات بلوتو.

كتب جون روز، وهو سوسيولوجي بريطاني وعضو قيادي في حزب العمال الاشتراكي، في الدفاع عن الفلسطينيين، وعن الحقيقة التاريخية، كتابا "ضد الصهيونية". وهو في الفقرة الأولى يعترف بأن "أصول الفكرة من وراء هذا الكتاب.. جاءت بسبب تعليقات عنصرية صدرت عن إيهود باراك". وكرد فعل على تعليقات باراك، يرى روز "أن الفلسطينيين يختبرون الصهيونية كصرح من الأكاذيب". لذلك، فإنه في محتوى الكتاب يسرد عشر خرافات (أو أساطير) صهيونية: الأولى تتحدث عن التوراة باعتبارها "شريعتنا"؛ والثانية تعتمد المنفى على أنه "السمة المميزة لليهود"؛ والثالثة تتعلق بمعاناة اليهود؛ والرابعة تعود إلى وجهة النظر القديمة تجاه "نحن" اليهود و "هم" العرب؛ والخامسة عن "أرض بلا شعب"؛ والسادسة عن "شعب بلا أرض"؛ والسابعة والتاسعة حول مقترح "إسرائيل الصغيرة الشجاعة"؛ والثامنة حول الضرورة الملحة لدولة إسرائيل بعد الهولوكوست؛ والعاشرة صورة حديثة لرؤية "نحن" اليهود و "هم" العرب.

تتحدث الفصول الأربعة الأولى عن التاريخ اليهودي الماضي، بينما تتحدث الست الأخرى عن السنوات المائة من تاريخ الصهيونية ذاتها. وعلى أية حال، فإن في منهج الكتاب ومادته في القسمين، محاولة للتمييز بين ما يسميه "خرافات الصهيونية" والواقع الدنيوي لتاريخ اليهودية والصهيونية كما حدث في الحقيقه. وهكذا، وعلى سبيل المثال، يحاول روز في الفصل الرابع أن يثبت خطأ محاولة الصهيونية "إجبار العرب واليهود على الافتراق، بطريقة معاكسة لما سار عليه الطابع التاريخي للحضارة العربية الإسلامية". وفي

*باحث في تاريخ الصهيونية والشرق الاوسط ، يسكن في حيفا

ينسى روز أن خرافات الصهيونية تبقى هي نفسها خرافات اليهود القومية، تماما مثل الخرافات القومية للألمان والتشيك والعرب[٢]. تبعا لذلك فهو يفشل في رؤية صلة الخرافات وأهميتها في أيّ من القوميات في وسط. شرق أوروبا. وبكلمات غيلنر، "في كافة أنحاء وسط أوروبا وشرقيها، تستخدم الفكرة القومية حول (اليقظة أو الإحياء أو البعث) بشكل واسع.

موازاة ذلك، فهو في الفصل التاسع، وسيرا على خطى خومسكي وسعيد، يعارض أسلوب تقديم "إسرائيل الشجاعة الصغيرة" السائد. وطبقا له كانت إسرائيل أقرب إلى "محميّة لقوة عظمى".

وأقول الحقيقة: ولدت لدي مشاعر مختلطة تجاه كتاب روز؟ لقد أحببت منظوره النقدي بكل تأكيد، وكذلك الطريقة الذكية التي يفكّك بها الخرافات العشر للأيديولوجيا الصهيونية. مع ذلك، وفي الوقت نفسه، فمنذ البداية تشكّل لديّ انطباع أنه كان يلعب، إلى حد كبير، في أرض الصهيونية ذاتها، وهو يقدم حجته ضدها.

يشير هيغل في **فلسفة التاريخ** إلى "أنه في تاريخ العالم ينتج من أفعال البشر، شيء آخر غير الذي أرادوه، شيء مختلف عما يعرفونه أو يريدونه". وباقتباس هيغل، فإن شيئا آخر ينتج من كتاب روز، وهو شيء مختلف عما يعرف أو يريد. لذلك، أستطيع أن أقول عن هذا الكتاب، ما قاله بالاق لبلعام "لتشتم أعدائي أخذتك وهوَ ذا أنت قد باركتهم"[١]. (العدد ٢٣: ١١).

الصعوبة المنهجية الأساسية في دفاعات روز تكمن في محاولته ذاتها تعريف "الخرافات" بشكل منفصل عن الواقع في العملية التاريخية. لقد انتقد المؤرخ البريطاني ي. هـ. كار في كتابه الشهير **ما هو التاريخ؟** حجة ليوبولد فون رانكه حول "أن مهمة المؤرخ تكون ببساطة أن يوضح كيف كان الواقع". والسؤال الحاسم، كما يشير كار، هو: ما الذي يجعل الوقائع حول الماضي وقائع تاريخية؟ أو، كما يعيد الصياغة، "ما هي الواقعة التاريخية؟" وللأسف فإن روز لم يقترب من هذا السؤال الحاسم في صلته بالتاريخ الصهيوني. نتيجة لذلك، فهو لا يفسر ما الذي يجعل وقائعه حول الماضي اليهودي والصهيوني أكثر واقعية وصلة من "خرافات الصهيونية". وسيرا خلف رانكه، يحاول ببساطة أن يرينا كيف كانت وقائع التاريخ اليهودي والصهيوني. مع ذلك، وبوضوح، يظل ذلك فقط كتابة في التاريخ، أكثر من كونه التاريخ اليهودي والصهيوني كما حدث في الواقع. انطلاقا من ذلك، فإن التاريخ الصهيوني لا يجب أن يقرأ من وجهة النظر الفلسطينية، ولا من منظور علمي أو أكاديمي بحت. يجب أن يقرأ في سياق مرجعية من نوع هادف ومنظور تفسيري، وفي إطار ذلك، وهو ما غاب بشكل شبه كلي عن كتاب روز، مع الأسف.

على أية حال، فإن كتاب روز إشكالي في المصطلح وفي المادة.

أولا: يحاول روز بقوة أن يعرض بطلان الصهيونية فيما يتعلق بهويتها اليهودية، ومع ذلك، وفي نهاية الأمر، فإنه يعرِّفها بمصطلحات يهودية (قومية. دينية. سياسية). الدولة الاستعمارية الأوروبية في إسرائيل يستمر تعريفها من قبله على أنها "الدولة **اليهودية**" كأمر محسوم. وهكذا فإن وصف "الدولة اليهودية" يستخدم دائما كهوية تاريخية وكخرافة صهيونية. وفي الصفحة الافتتاحية للفصل الثامن حول الهولوكوست النازي يجري ذكر "الدولة اليهودية" ست مرات، أولا مثلما اقترح القديس أوغسطين كَ "اسم"، وبعد ذلك مثلما اقترحه كَ "موضوع". وتكمن الصعوبة في أن روز لا يميز بين الأمرين، ولذلك فإن "الدولة اليهودية" تفهم من قبله كَ "موضوع" تاريخي أكثر من كونها "اسما"، أو ما أطلق عليه راسل تعبير "رمز".

ثانيا: ينسى روز أن خرافات الصهيونية تبقى هي نفسها خرافات اليهود القومية، تماما مثل الخرافات القومية للألمان والتشيك والعرب[٢]. تبعا لذلك فهو يفشل في رؤية صلة الخرافات وأهميتها في أيّ من القوميات في وسط. شرق أوروبا. وبكلمات غيلنر، "في كافة أنحاء وسط أوروبا وشرقيها، تستخدم الفكرة القومية حول (اليقظة أو الإحياء أو البعث) بشكل واسع. وخرافة **البعث**، مثل خرافة الإله، هي مجرد اختراع، ومع ذلك فقد أوضح غيلنر أنها كانت اختراعا حديثا جدا ومفيدا جدا.

يبدو أن روز فشل في التمييز بين ظاهرة الصهيونية وما يسميه هيغل "محصلتها". بمصطلح روز، ليست دولة إسرائيل محصلة التاريخ الصهيوني، بل هي أقرب إلى إعلان عن تفكير خرافي كجوهر للصهيونية. على أية حال، وكما قال هيغل:
التعريف الحقيقي لا يمكن أن يقدّم كاقتراح معزول، بل يجب أن يتقن التاريخ الحقيقي للأمر، لأن تاريخه وحده يمكن أن يفسّر واقعه (علم المنطق، ١٩٦٧).
وهكذا، وبدلا من تحليل سياسيّ لتاريخ الصهيونية، فإنه يفضل النقد الأدبيّ لخرافاتها. ولهذا السبب نفسه، فإن كل شيء في كتاب روز مقلوب.

ثالثا: فكرة "الصهيونية" ذاتها، دون أن توضع في سياق تاريخي أو سياسي أو دون تجسيد، هي مجرد موضوع لحاجة معنوية. وقبل نهاية الكتاب، يستمر روز في الحديث عن "الصهيونية" كأمر نهائي، مع أن الإنسان قد يتساءل: ما هي الصهيونية اليوم إلى جانب، و/أو فوق الحكومة الإسرائيلية الحالية؟ كان من الأفضل البدء بموضوع تاريخ مجسد مثل "المستعمرة الصهيونية خلال فترة الانتداب". بالمقابل، هنا والآن، ما زالت توجد خرافات دولة إسرائيل، مثل الأيديولوجيا القومية اليهودية السائدة. وهو نوع من النظام القومي الإثني الذي يجب أن يتم تفكيكه ونقده بمصطلحات سياسية عقلية. وهكذا، ومن وجهة نظر سياسية، فإن الصهيونية ليست بالتأكيد مجرّد "صرح من الأكاذيب"، بل هي أقرب إلى واقع تاريخي يجب تحليله ودراسته طبقا لذلك. وهذا يعني أن الصهيونية في فترة الانتداب كانت، في الحقيقة الواقعية، التطبيق السياسي العملي لحزب ماباي الفاشي الأولي برئاسة بن-غوريون الذي اخترع واستخدم "صرح الأكاذيب" حول الشعب اليهودي، والذي بعقله وحيدا قرر تاريخ الصهيونية، وبالتالي أسس "الدولة اليهودية".

تبعا لذلك، فإن السؤال السياسي المناسب هو: كيف، ولماذا، وعبر أية عملية تمّ اختراع الخرافات الصهيونية واستخدامها في برنامج صراع القوة بين رجال/نساء من لحم ودم، يسيرون نحو غاياتهم السياسية؟

رابعا: يبدو أن روز فشل في التمييز بين ظاهرة الصهيونية وما يسميه هيغل "محصلتها". بمصطلح روز، ليست دولة إسرائيل محصلة التاريخ الصهيوني، بل هي أقرب إلى إعلان عن تفكير خرافي كجوهر للصهيونية. على أية حال، وكما قال هيغل:

التعريف الحقيقي لا يمكن أن يقدّم كاقتراح معزول، بل يجب أن يتقن التاريخ الحقيقي للأمر، لأن تاريخه وحده يمكن أن يفسّر واقعه (علم المنطق، ١٩٦٧).

وهكذا، وبدلا من تحليل سياسيّ لتاريخ الصهيونية، فإنه يفضل النقد الأدبيّ لخرافاتها. ولهذا السبب نفسه، فإن كل شيء في كتاب روز مقلوب.

النقاد الراديكاليون للصهيونية مثل مكسيم رودنسون وآيزاك دوتشر يؤكدون على السياق السياسي وعلى الطبيعة الذرائعية والنفعية للخطاب الصهيوني. مع روز، يصحّ العكس. طبقا له، فإن مشكلة الصهيونية تكمن في الأسلوب الميثولوجي في التفكير، بدلا من التطبيق السياسي التاريخي الذي قام به أنصارها.

خامسا: على الإنسان أن يفرّق جيدا بين ما أطلق عليه س. رايت ميلز اسم "النخبة القوية"، أي قادة الصهيونية، والآخرين من الشخصيات التنويرية التقدمية، ممن كانوا في صفّ المعارضة للقيادة الصهيونية وأيديولوجيتها. خلال العصر العثماني والانتدابي بكاملهما، كانت الحركة الصهيونية منقسمة بعمق بين التيار المحافظ والتيار الأكثر تنويرا. أيديولوجيا، كان الأمر صراع قوة بين ما أسميه "أيديوقراطية" يهودية قومية، أي حكم الاتجاه الفاشي الأوّلي من الأيديولوجية القومية اليهودية، في مواجهة الاتجاهات الرومانسية التحررية الاشتراكية للقومية اليهودية. لذلك كان الكتّاب والشخصيات السياسية مثل آحاد هاعام، والبروفسور يهودا ماغنيس، والفيلسوف مارتن بوبر، ومئير يعاري، قائد "**هاشومير هتسعير**" (منظمة الشبيبة التابعة لحزب مبام)، وكثيرون آخرون من المثقفين الصهيونيين المتنورين، قبل وقت طويل من وقوف روز، يجادلون بقوة ضد التوجهات الشوفينية والعسكرية للقيادة الصهيونية. آحاد هاعام (لقب آشر غينزبيرغ، ويعني "أحد الناس") بعد زيارته إلى فلسطين عام ١٨٩٢، كتب

المشكلة الرئيسية في الخطاب القومي اليهودي الرومانسي تكمن في نقص المنظور السياسي العقلاني. هذه الحالة من التوجه إلى الماضي، المعبأ طبيعيا وثقافيا، يطرحها بنفينيستي باعتبارها جدوى أخلاقية روحية لتشكّله اليهودي القومي، وكمعارض للسياسة الحقيقية لكلّ من "اليمين واليسار على حد سواء". وهو خلال تركيزه على النصّيّ، بدلا من السياق السياسي، يرى الخطاب الثقافي كتفسير، وكقوة دافعة للعملية التاريخية. نتيجة لذلك، فإنه لا يعطي قيمة كافية للسياسة التي يرى هيلد أنها "تخلق جميع سمات حياتنا وتكيفها". وفوق ذلك فإن بنفينيستي، وبشكل مقنع تماما، يدفع ضدّ المعنى اليهودي الرئيسي للخرافات الصهيونية.

مقالة مشهورة عنوانها "الحقيقة من أرض إسرائيل"، دحض فيها واحدة من "الخرافات الصهيونية" الأساسية. لقد كتب:

تعودنا في الخارج أن نصدّق أنها كانت أرضا مهجورة، لكن الحقيقة تقول إن العكس هو الصحيح. في طول البلاد وعرضها، يصعب أن تجد أرضا خصبة غير مزروعة؛ لا شيء غير مزروع سوى الكثبان والصخور.

ومئير يعاري، في واحدة من مقالاته المنفعلة العديدة ضد القيادة الصهيونية خلال ثلاثينيات القرن العشرين دافع عن "اتفاقية سياسية شاملة تؤكد الطموحات القومية والاجتماعية للشعبين".

ومن الواضح أن آحاد هاعام ومئير يعاري لم يكونا يؤمنان بالخرافات الصهيونية، ومع ذلك فقد كانا بالتأكيد صهيونيين.

سادسا: في معارضة "الخرافة الصهيونية" يقترح روز منظورا رومانسيا حول "أخوة عربية يهودية". ولذلك يقتبس من ميرون بنفينيستي الذي يقترح نوعا من الخطاب الثنائي القومية يوطّن اليهود إلى جانب "العرب"، بدلا من "نحن" في مواجهة "هم". ومن خلال موقفه المتقبل للعرب، يميز بنفينيستي نفسه عن اليمين الإسرائيلي وعن اليسار أيضا. وهو يكتب:

أنا مواطن، وابن أحد المهاجرين الذين انجذبوا إلى الثقافة العربية واللغة العربية لأنها هنا.. أنا أحبّ كل شيء يصدر عن هذه الأرض. بينما اليمين، بكل تأكيد، واليسار أيضا، يكره العرب.

المشكلة الرئيسية في الخطاب القومي اليهودي الرومانسي تكمن في نقص المنظور السياسي العقلاني. هذه الحالة من التوجه إلى الماضي، المعبأ طبيعيا وثقافيا، يطرحها بنفينيستي باعتبارها جدوى أخلاقية روحية لتشكّله اليهودي القومي، وكمعارض للسياسة الحقيقية لكلّ من "اليمين واليسار على حد سواء". وهو خلال تركيزه على النصّيّ، بدلا من السياق السياسي، يرى الخطاب الثقافي كتفسير، وكقوة دافعة للعملية التاريخية. نتيجة لذلك، فإنه لا يعطي قيمة كافية للسياسة التي يرى هيلد أنها "تخلق جميع سمات حياتنا وتكيفها". وفوق ذلك فإن بنفينيستي، وبشكل مقنع تماما، يدفع ضدّ المعنى اليهودي الرئيسي للخرافات الصهيونية. مع ذلك فإن تفسيره الرومانسي يهتم أيضا بشكل أساسي ببعد واحد من سطحية الخطاب والتمثيل. لكنّه في النهاية، وبشكل حتميّ، يكرر، أو يعكس انقسام الصهيونية، حتى وإن كان إطاره المرجعي الذكيّ حول "الثنائية القومية". على أرض واقع الخطاب الصهيوني السائد، فهو يمثل الصوت اليهودي لِ "هذه الأرض". مع ذلك، كما يرى كوليتي، فإن الصوت اليهودي "واحد من اثنين". وبالتأكيد، فإن السياسة وحدها تستطيع أن توسّط أو تحوّل الانقسام الصهيوني بين الاثنين. وكما يرى ذلك هيلد:

توجد السياسة في كل الجماعات والمجتمعات، متخللة الحياة العامة والخاصة... بعدٌ كونيّ من الحياة الإنسانية لا صلة له بأي 'موقع' أو أية مجموعة من المؤسسات (هيلد،١٩٩٦).

روز ـ بنفينيستي، مثل غاياتري، س. سبيفاك، رأوا أن "التابع الأول يستطيع أن يتحدث". الصعوبة تكمن في أنهم دعوا اليهود والعرب كي يتحدث كل منهما بلسانه الثقافي فقط، بعيدا عن "البعد الكوني للحياة الإنسانية"، وفي تناقض معه.

خلاصة ذلك، أن روز يقدّم العرب في مواجهة الجهاز الثقافي السائد للأيديولوجية الصهيونية، لكنه يفشل في أن يرى أننا نحن (بدلا من "هم") نعيش الآن في عالم سياسي حديث، وأننا لا نستطيع بكل بساطة أن نتحدث بمصطلحات ما كنّا عليه. بدلا من ذلك، فهو يصرّ على أنهم هم (بدلا من "نحن") يمكنهم أن يوقفوا

الساعة، أو حتى، كما رأى فانون، يمكنهم أن يعيدوها إلى الوراء حتى يوجدوا، ويلاحَظوا، على ضوء ما كانوا عليه. على أية حال، ففي العصر الحديث، فإن الجمهوريات القومية الغربية وحدها هي التي استطاعت بالفعل أن تدير شؤون الصراعات الإثنية القومية، وأن توصل المجتمع المدني ككل إلى حالة من الانسجام مع وجهات نظرها الأخلاقية والسياسية. ولسوء الحظ، مرة أخرى، فإن فكرة وجود نوع من الشراكة الجمهورية الفلسطينية الإسرائيلية كانت غائبة كلياً عن كتاب روز.

---

١ تعليق: خرافات الصهيونية هي بالتأكيد خرافات قومية، ومع ذلك فمن الصعب أن يجد الإنسان في كتاب روز أي رجوع إلى الأعمال الكبرى حول القومية مثل أعمال كون وغيلنر وهوبسباوم وأندرسون وسميث وبروبايكر.

المقال مترجم عن الانجليزية

حالياً في الأسواق

الحروب لا تندلع من تلقاء ذاتها

لموطي غولاني

مدار
المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية
The Palestinian Forum for Israeli Studies (MADAR)